ملخص كتاب سيكولوجية الجماهير

ل غوستاف لوبون

مقدمة

غوستاف لوبون هو طبيب ومؤرخ فرنسي، يعد من أشهر فلاسفة الغرب. لهُ عدة مؤلفات، ومنها كتاب سيكولوجية الجماهير إذ يعد هذا الكتاب بحث شامل في روح الجماعات، وما يعتمل داخل نفوس أفرادها، وبيان لصفاتها العامة القريبة منها والبعيدة. فعند اجتماع جمع من الأفراد في جماعة. ستتولد حينها أحوال نفسية خاصة بهم. تتميز بها عن أحوال الفرد لو كان خارج الجماعة.

الملخص

الباب الأول :روح الجماعات

الفصل الأول / المميزات العمومية للجماعات
الجماعات بالمعنى المتعارف : وهي لفيف من القوم مطلقًا، على اختلاف حرفهم وجنسهم سواء كانوا _رجالًا أو اناثًا_ اجتمعوا على أمر ما.
الجماعات في علم النفس : أن اجتماع مجموعة من الناس بالاتفاق لا يستحق أن يأخذ صفة الجماعة المنظمة.

للجماعة المنظمة صفتان أوليتان وهما أولاً غياب الروح الشاعرة. ثانيًا يكون اجتماع هذ المجموعة على هدف أو أمر واحد . وهذه الصفتان لا تستلزمان وجود الجماعة في مكانٍ واحد. فقد يكونون متفرقين في بقاع الأرض، وأيضًا قد تكون هذه الجماعة مؤلفة من الآلاف من الناس.

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة، ويقوم بجانب تلك الصفات صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التي تألفت منها الجماعة. وهناك صفات نفسية أخرى للجماعة بعض منها تشترك فيها الجماعة مع الفرد، وصفات أخرى خاصة بها دون الفرد. فقد لا يقبل الفرد بعضًا من الأمور، لكنه عندما ينظم إلى جماعة ما، فإنه يسير بتلك الأمور من دون مخالفة. وسبب ذلك هو أن الشعور يغيب ، وتغيب معه المقدرة الفردية على التفكير بسبب دخولهم في روح الجماعة وتنزوي بذلك شخصيتهم.

الفصل الثاني / مشاعر الجماعات

صفات توجد في أغلب الجماعات:

1_الاندفاع والتقلب والغضب: الفرد عند وحدته لم يكن مندفعًا بقدر كبير كما في الجماعة، فإنه يعمل طوعًا للمؤثرات التي تدفعه للعمل. الدوافع المختلفة التي تدفعها للعمل لها مؤثرات مختلفة ترجع إليها، فتكون رحيمة أو قاسية أو عليها مسحة الأقدام أو الخمول، لكنها دائما شديدة لا تثنيها عن ذلك حتى منفعة حفظ الذات نفسها. ولأن المؤثرات مختلفة والجماعة تخضع لها بسرعة، فإنها متقلبة وتنتقل فجأة من افظع الأعمال إلى أكثرها إنسانية. بالإضافة إلى ذلك فإن الجماعة يحكمها الغضب الشديد، فهي لا تطيق أن يحول عائق بينها وبين ما تريد.

2 _قابلية الجماعة للتأثر والتصديق:

كما ذكرنا سابقًا، فإن الجماعات يسهل التأثير عليها، فلو رأى فرد من الجماعة خيال ما، قد يؤثر على جماعته فإن كل الجماعة ستصدقه من دون استخدام للعقل والمنطق في تحليل صدق رؤية ذلك الخيال. ولأنها لا تستخدم العقل، ويسهل التأثير عليها، فقد تخضع لأفكار مغلوطة، تؤدي في كثير من الأحيان إلى حدوث كارثة.

3_غلو مشاعر الجماعات وبساطتها : أن الجماعات تغلو في مشاعرها، سواء كانت جيدة أو رديئة. وتتصف بصفتين :بسيطة للغاية، وغلوا للنهاية، فهي قد تثور من أدنى دافع، بدون أن تنظر في صحته. الرجل منفردًا قد لا ينفر من أمر ما أو قد ينفر لكن بحدة أقل بكثير مما ينفر منه وهو في جماعة، حتى ينقلب النفور حقدًا شديدا .وتساهم كثرة الأفراد في الجماعة باندفاع الفرد فيها لأن يصنع أمورًا لا يتوافق معها دون الجماعة، أو أنه في وحدته لن يستطيع فعلها بسبب خوفه من العقاب.

4_ عدم مسالمة الجماعات وميلها إلى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم.

5_ أخلاق الجماعات : قد يكون الشر هو الغالب في الجماعات، ويكون الايذاء وحب السيطرة والتحكم بمن يخالف آرائهم من صفاتهم. لكنها أيضًا هي أهل للإخلاص والتخلص من تحقيق المنافع الذاتية في سبيل الجماعة، وما تنادي إليه من حب الخير والشرف أو الدفاع عن الدين والوطن.

الفصل الثالث / أفكار الجماعات وتعقلها وتخليها

أفكار الجماعات تنقسم إلى قسمين :

الأول هو الأفكار العرضية المؤقتة تتولد نتيجة لحوادث أو ولوع الأفراد بشخصية ما.
والثاني الأفكار الأساسية وهي العقائد الدينية والمعتقدات التي اكتسبت بالوراثة، والأفكار الديمقراطية والاجتماعية. وبدأت المعتقدات القديمة بالاضمحلال شيئًا فشيئًا، بسبب تطور بعض الأفكار العرضية وتحولها إلى أفكار أساسية ثم انتشارها. لكن هناك شرط لازم لانتشارها وهو وضعها في قواعد مطلقة بسيطة لتبدو للجماعات في هيئة صورة تحسنها . إذ أن أثر الفكر لن يظهر في معالم الجماعة متى تبينت صحته، إذ يجب أن يمتزج في النفس، ويغدوا من المشاعر الملازمة لأفرادها. بالتالي لا يمكن أن يسود إثر الفكر إلا بعد وقتٍ طويل. بسبب ضعف تأثير صحة الفكر في السواد الأعظم من الناس بعد ظهورها جليا.

الفصل الرابع / الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات

على مر العصور السابقة حدثت ثورات سياسية كبرى، إذ رأينا انها تتصبغ دائمًا بصبغة ذات شعور ديني. ولهذا الشعور مميزات بسيطة، أولها عبادة ذات يتوهم بأنها فوق الذوات، والخوف من القوة التي تظن بها، والخضوع الأعمى لأوامرها، و استحالة البحث في تعاليمها، والرغبة في نشرها، ومعاداة كل من لا يقول بها.

الغضب وعدم الاحتمال صفتان ملازمتان لكل شعور ديني يمتزج في نفس الجماعة ، مهما كانت طبيعته سواء طيبة أم سيئة. وليس المتدين فقط من يعبد إلها، بل كل من يسلم عقله لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصودة ، فهو دائم بما توجه إليه. اذ لا يوجد إنسان لا يعبد إلها أو أيً كان، فمن لا يعبد شيئًا فقد يعبد نفسه.

الباب الثاني : أفكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول /العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وأفكارها

هناك عوامل تولد الآراء والمعتقدات لدى الجماعات وهي قسمان.

عوامل بعيدة : وهي التي تهي الجماعات لقبول الأفكار وتبنيها أو مقاومتها، تعتبر مثل التربة الحاضنة التي تهيئ العقول لنبات أفكار جديدة لها قوة وأثر مدهشين.

عوامل قريبة : وهي التي تلي العوامل البعيدة وتأتي مساعدةً لها، ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي إلى الفعل. وتتعاقب هذه العوامل في جميع حوادث التاريخ العظيمة.

العوامل البعيدة العامة المؤثرة في الجماعة :

1 _الشعب : إذ يعد بمثابة القاعدة الأساسية لتكوين الجماعة من جميع النواحي، وهو الذي يميز جماعات بلد ما عن جماعات البلد الآخر. من جهة المعتقدات والمؤثرات التي تتأثر بها.

2 التقاليد :إذ أن للعادات والموروثات لأي شعب من الشعوب تأثيرًا عظيمًا، ولا تستطيع الجماعات أن تكون بلا تقاليد، وهي أشد الناس محافظة على التقاليد وأصعبهم مراسًا في معارضة من يحاول تغييرها.

3 _الزمان : وهو من أهم العوامل المؤثرة في تكوين الجماعات، إذ يهيئ التربة لاستقبال الأفكار. الجديدة، وينفي بعضًا منها مما لم تعد تروق لها، لذلك صح وجود بعض الأفكار في زمن وامتنع وجودها في زمنٍ آخر.

4 _النظامات السياسية والاجتماعية : إلى الآن يظن الناس أن النظامات هي التي تحكم الشعوب، بالرغم من عدم صحة هذه الفكرة، وقلة من عرفوا ووجدوا الدليل الذي يبين أن النظامات ماهي إلا بنات أفكار الشعب وطباعه، متى ما تغيرت تلك النظامات للأفضل متى ما تحسنت معيشة تلك الأمم.

5 _التربية والتعليم :من أكثر الأفكار السائدة عن أهمية التعليم التي لا يفطن الكثير إلى مدى عدم مصداقيتها. إذ أن التعليم الإجباري المجاني في المدارس القائم على الحفظ بالدرجة الأولى غير مفيد وله آثار سيئة، لا يعني ذلك أن التعليم غير ضروري، لكن ما يشك في صحته هو الطريقة التي يمارس فيها التعليم. إذ يتقدم الحفظ فيها على الممارسة العملية التي تزيد فائدتها ويكون الفهم فيها أكبر وأنفع.

الفصل الثاني / العوامل القريبة المؤثرة في أفكار الجماعات

هناك عوامل قريبة مختلفة تؤثر في الجماعات من أهم هذه العوامل :

1_ الصور والألفاظ والجمل : إن للصور تأثيرًا لا يستهان به على أفكار الجماعات، فإذا تعسر وجودها في زمن ما، فإن الألفاظ والجمل تحل محلها، ولها تأثير يضاهي تأثير الصور في نفوس أفراد الجماعة. خصوصًا إذا كان من يستعملها بارعًا فلها قوة السحر. فهي التي تدفعهم للغضب وهي التي تهيئهم لقبول فكرة ما.

2_ الأوهام : إذا قرأت قراءة متمعنة في التاريخ، فإنك ستجد أن للأوهام يدًا ضالعة في أحداث عظيمة فيه. فكما يقول المؤلف (إن الحقيقة لم تكن أبدا العامل الأكبر في تطور الأمم، ولكنه الباطل على الدوام).

3_ التجارب : التجارب هي الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة في نفوس الجماعات، فإذا أردنا أن نغير فكرة مغلوطة في عقول إحدى الجماعات، يتوجب علينا أن القيام بتجارب كثيرة تظهر الحقيقة.

4 _ العقل : ان الجماعات لا تهتم بالأدلة والبراهين، إذ أنها تكون مغيبة العقل كالشخص الذي يقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي. فالجماعات تتبع عواطفها وأهواء قوادها. وتسير محكومة خلف نواميس مآلها في الوجود . وأن الجماعات تسيرها أيضًا قوى خفية لا يسعنا أن نعرف عنها كثيرًا كما يقول غوستاف لو بون. فقد كان مما لا يصدقه العقل أن نجارًا جاهلًا هو (غاليله) يصير مدة ألفي عام كإله جلت قدرته يؤسس باسمه أهم أركان المدنيات في الدنيا.

الفصل الرابع / قواد الجماعات وطرقهم في الإقناع

1_ قواد الجماعات :وهم الركن الأهم في تشكيل الجماعة، والعادة أن يكون القائد مأخوذا خلف فكرة ما. وغالبًا ما يكون القائد من السفسطائيون بعيدًا عن أهل الرأي والحصافة، بل من أهل العمل والإقدام.
لكن هناك قواد جماعات من أصحاب المعتقدات الصحيحة، يكونون على قدر كبير من العلم، أثروا في الجماعات بعد أن تأثروا بالأفكار السامية. فسلبوا الألباب بالإيمان الذي سحر العقول. والاستبداد غالبًا صفة لازمة للقائد، واستبدادهم هو سبب سيادتهم. والقواد نوعين، قواد أولو عزم وإرادة قوية لكنها وقتية، قواد ذوو إرادة قوية ودائمة وهؤلاء قليلون. النوع الأول يكونون في بعض المعارك والأزمات أبطالًا، لكنهم في غير أوقات تخفت قوتهم، ولن يعلموا كيف يتصرفوا. النوع الثاني فهم أولو الإرادة الثابتة مثل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ودولسبس، وغيرهم. فكانوا في حياتهم وبعد مماتهم منارة لضرب الأمثال بشجاعتهم وأفكارهم التنويرية.

2_ وسائل القواد في التأثير : يتبع القواد وسائل في التأثير على الجماعات وهي التوكيد والتكرار والعدوى. تتأثر الجماعات بالقصص والأمثلة، لذلك يستعملها القواد بتكرار حتى تترسخ وتنتشر بين أفراد الجماعة كالعدوى. إذ ينتج عن هذه الوسائل نفوذًا. وقد يجتمع هذا النفوذ مع مشاعر الإعجاب أو الرهبة أو كلاهما. والنفوذ أعظم مقوم لكل سيادة في العالم، إذ لولاه ما ساد الآلهة والملوك.
وللنفوذ نوعين النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي. النفوذ الشخصي يكون أمر ذاتي مع ثروة ومجد وشهرة. أما النفوذ المكتسب فيكون بسبب عمل ما، أو يرجع لاسم صاحبه أو ثروته، لأنه اكتسبه من العمل الكي يقوم به كما الجندي في زيهِ ،وغيره من التخصصات. وان النفوذ يعطل ملكة النقد والتمييز.

الفصل الرابع / حدود تقلب الجماعات وأفكارها

تنقسم معتقدات الجماعات إلى قسمين : معتقدات دائمة او ثابتة، وهي التي تبقى ملازمة للجماعة زمنًا طويلاً ولا تتغير بسهولة . وتكون المعتقدات العامة نادرة وقليلة. وتدافع الجماعات عن معتقداتها باستماته. ولن تزول هذه المعتقدات الا اذا حاو أفراد تلك الجماعات بالبحث في أصل المعتقدات.
والقسم الثاني أفكار وقتية، وتكون في الغالب مشتقة من الأفكار العامة، ولا تمكث كثيرًا بل تتغير دائمًا.

الباب الثالث / اقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول / أقسام الجماعات :الجماعات إلى قسمين أولها الجمع مطلقًا ويتكون من أفراد متفرقين، وما يجمع بينهم هو إرادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم. والقسم الثاني يتكون من الجموع التي أثرت فيها أحوال وعوامل ولدت فيها عوامل عامة، وانتهت بأن صارت شعبًا واحدا. فإذا اجتمعت هذه المجاميع بقسميها وصفاتها الخاصة والعامة تصبح جماعات تنقسم إلى الأقسام الآتية :

أولا : الجماعات المختلفة العناصر:

1_الجماعات التي لا اسم لها (كجماعات الطريق العام).

2_الجماعات التي لها اسم خاص (كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا)

ثانيًا : الجماعات المؤتلفة العناصر :

1_الإفناء.

2 الطوائف.

3_الطبقات.

الفصل الثاني / الجماعات الجارمة

وتتصف هذه الجماعات بأنها تنقاد خلف التحريض القوي الذي يدفعها إلى انتهاك أبشع الجرائم، التي لو كان الفرد دون الجماعة لاستنكرها استنكارًا شديدًا.
أما الصفات العامة لهذه الجماعات فتتشابه مع صفات غيرها من الجماعات، من قابلية التأثر، والتصديق والتقلب، والتطرف في المشاعر طيبة كانت أو رديئة.... وغير ذلك.

الفصل الثالث / العدول المحلفون أمام محاكم الجنايات

وهم من الجماعات التي لها اسم خاص. لها من الصفات ما تتشابه به مع الجماعات النفسية من قابلية التأثر والتصديق. والتقلب. والغضب، والانصياع إلى القواد...

العدول كغيرهم من الجماعات حتى لو كانوا من أهل العلم فإنه لا تأثير للعقل المستنير في رأي الجماعة.

ويتأثرون بالمشاعر، فهم كما قال أحد المحامين (لا يثبتون أمام امرأة ترضع طفلها أو أمام صغار يتامى إذا نظروا إليهم. ويكونوا قساة القلوب أمام الجرائم التي تهدد أمنهم وتهم الهيئة الاجتماعية.

الفصل الرابع / جماعات الانتخاب

من الجماعات المختلفة العناصر، والتي تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة. لها من الصفات ما تتشابه به مع الجماعات النفسية الأخرى. وهي تنصاع خلف من يملك نفوذًا ذاتيًا أو نفوذ مكتسب من الثروة.
لكن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه، بل يجب أن يتملق ويعِدهم بإصلاحات عظيمة.
أما المترشح المزاحم فإنه يجب أن يدخل آليه عن طريق التوكيد والتكرار والعدوى لإثبات أنه اخس الناس.

الفصل الخامس / المجالس النيابية

وهي مجالس مختلفة العناصر غير اسمية ،تكونت لأسباب عديدة منها انتشار فكرة الديموقراطية و نشوء فكرة أن العدد الكثير يمكنه البت في الأمور بالعقل والرؤية والاستقلال . وصفاتها تكون مشابهة للصفات المميزة للجماعات مثل ، قابلية التأثر والتصديق ،والغضب من أتفه الأمور . ولها صفات أخرى تتميز بها عن الجماعات الأخرى ومن هذه الصفات : بساطة الأفكار ،والتمسك الشديد بالمبادئ والقوانين والقطع بها من دون النظر إلى مقتضى الحال .ومن صفاتها أيضا أن لكل عضو رأي ثابت في المسائل المتعلقة بأقليمه لا يمكن زحزحته عنه حتى لو استعملنا الحجة والدليل.